

بلا صاف

عن سمير وأشياء أخرى

I

في النبذة التي شاعت عن حياته، أنه أعدّ اطروحات جامعية ونال شهادات عليا محضته لقب الدكتور، اللقب الذي لم يسبق اسمه يوماً. والحق انها نبذة مغلوبة.

فسمير قصير كان يعد اطروحة واحدة، كلمة كلمة، حرفاً حرفاً، يوماً يوماً. وفي 2 حزيران تقدم لمناقشة اطروحته عن الحرية والحياة والفرح، ففاز برتبة شهيد فاتن.

سمير، حبيبي،

لن احكي عنك، حتى لا اهتك القلب.
فقط، أسألك ساخطاً:

لماذا تضعني امام الامتحان؟ لماذا تجرّيني؟ لماذا تخيّرني بين ان اخون دمك وشفرة قلّمي، او اشترى رأسي وعيش أولادي؟
لماذا تقسو عليّ وتفرض اضطرابي وعريي ومسكنتي وهشاشة عظامي؟

لماذا علوت حتى غدوت لا تطال؟

لماذا لم تستو تحت حافة الرجولة بدرجة؟

الذين أقسموا انهم سيسيروا على دربك، سيسلكون غداً على دروبهم، وأبقي امام صوتك يؤنّبني: وانت ايضا تكذب، وقد ظننتك صدوقاً؟ وأنت ايضا تبيعي كلاماً؟ أين مسيحك الذي ترفع ايقونته فوق رأسك، وهو من كتب بدمه العهد الجديد؟ اما كنت تفاخر انك من أتباعه؟ أتكرني قبل صياح الديك؟ اغرب عن وجهي، فأنت منافق، ودعني في ظلمة قبري. لكن أعلم اني ابصر، وانتم عميان. واعلم ان قبري نظيف وبيوتكم ملوثة. واعلم انه لن يهنا لك عيش في النسيان. واعلم ان الحياة بعدي، غيرها قبلي.

سمير، ما اصعب حبك يا حبيبي.

ما اصعب المادة التي درّستها.

... وتأتي اليوم لتطرح علينا اسئلة امتحان آخر السنة. آخر العمر. آخر الصدق، آخر القلم والمحبرة. آخر الولوج الفلسطيني، آخر الهوى بشباب لبنان. آخر الافتتان بياسمين دمشق.

سمير، سأسلمك ورقة بيضاء، يا معلمي الفتى. يا اخي الفائق الحلوة. فاكتب عليها ما تشاء.

II

غداً، في جبل لبنان معركة طاحنة لتحديد الاحجام والقياسات. جلّها بلا مبادئ ولا افكار ولا برامج. هرولة نحو المقاعد وتدافش نحو السلطة ومزاريب المال.

تحالفات طبيعية، وتحالفات شاذة اخلاقياً. وجوه سوداء ووجوه بيضاء تصطف في لائحة واحدة وركاب سرفيس وركاب بوسطة معا. موالون حتى شعر رؤوسهم يلبسون اقنعة البرابرة ليصيروا معارضين. معارضون من القرنة يفرّون الى بوسطة ميشال عون. كله مسموح لعيون اللوحة الزرقاء...

ولكن، في هذه الهمروجة، قامت عالية تليق بها انتخابات بمقاييس اوروبية، يتصدرها نسيب لحدود. هذا الممعن في كرامته، الواقف باستقامة يقول قول الحق الذي يصيب ولا يدمي، يقسو ولا يجرح. نسيب لحدود، ذلك الاعتدال الذي يتأبى الميوعة، ذلك الحزم الذي ينأى عن فاحش الكلمات، تلك اللبناية المفتوحة الاحشاء على العروبة الحضارية، تلك السياسة البيضاء المطعمه بالرقم الصائب، يستحق ان يأنس اليه الاجرار والديموقراطيون ويرون في وصوله مع رفاقه الى قبة البرلمان وصولاً للرفي والمعرفة ومنعة النفس.

جورج ناصيف